لقاء

في ذكرى مرور أربعين يوماً على رحيله، تنشر «العربي الجديد» تفاصيل اللقاء الأخير الذي أجرته مع الفنّان المصري الراحل، حيث تناول فيه المحطات الأولى في مسيرته بمصر قبل أن ينتقل إلى بيروت وينخرط في شؤونها أدباً وسياسة من خلال جريدة السفير والالتزام بقضية فلسطين، مستعيداً تاريخ الصحافيّين المصريّين في لبنان خلال سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي

ذكريات حلمي التوني البيروتية

من لبنان إلى العالم العربي على جناح حمامة برتقالية

حلمي التوني (1934 - 2024)

كارم يحيى

انقطع فجأة الاتصال بالهاتف مع الفنّان المصري حلمي التوني، خلال حوار أجريته معه بعد عودتي من لبنان، محاولاً استعادة تاريخ الصحافيّين المصريّين في عالم صحافة بيروت سنوات السبعينيات والثمانينيات. عاد بعدها بدقائق ليتّصل، ويعتذر بنفاد شحن طاقة هاتفه الجوال. لكنّه أخبرني بأنه مُتعَب، وذاهبٌ في اليوم التالي إلى مستشفى «الصفا» بالمهندسين لإجراء جراحة ثالثة في العمود الفقري. أبدى شكوكاً في نجاحها، إلّا أنه وعد باستئناف الحوار مع لقاء مُطوّل لاحقاً، وبعد أن يتعافى من العملية.

وكان هذا الحوار الهاتفي ظُهر يوم الجمعة، الثاني عشر من آذار/ مارس الماضي. وأخال أنّ ما قاله نادر وغير منشور من قبل. بعد ثلاثة أيام قمت بزيارته في المستشفى، وهو على سرير النقاهة من العملية. ووجدتُ أنّ اللياقة تقتضي تأجيل استكمال ما بدأناه عن تجربته في بيروت. ومع هذا قضيت معه نحو الساعتين بمفردنا، طاف خلالها بموضوعات وذكريات شتّى.

وحتى رحيله في السابع من أيلول/ سبتمبر الماضي، اتصلتُ به هاتفياً غير مرّة لعلّنا نستكمل ما بدأنا، لكن صحّته ظلّت تتدهور على نحو لم يسمح باللقاء. وأظنّه أصبح زاهداً في التواصل والكلام مع الناس. ولاحقاً عرفتُ من مُرافقه أنه توقّف عن الرسم بعدما خرج من المستشفى. ونادراً ما استطاع الاستئذان من الألم كي يرسم، سوى «اسكتشات» بالرصاص، متخلّياً عن الألوان، تلك التي طالما أبهجتنا.

ثلاثة عشر عاماً في بيروت

الشائع والمنشور أن التوني أقام في لبنان ثلاث سنوات فقط، كما تفيد «ويكيبيديا». إلا أنه أجاب عندما سألت عن كيف استقر في بيروت وعمل بصحافتها؟ بأن هذه الإقامة استمرّت لنحو ثلاث عشرة سنة اعتباراً من العام 1973. مرّ سريعاً بملابسات منعه من العمل، وحرمانه من الدخول إلى مقرّه في «دار الهلال»، إثر قرار لجنة النظام بحزب الاتحاد الاشتراكي في شباط/ فبراير 1973 إسقاط عضوية أربعة وستين صحافياً من التنظيم السياسي الوحيد حينها، وبالتالي فقدان شرط لازم لعضوية نقابة الصحافيين المصريين وممارسة المهنة. قال: «كنتُ في مصر ممنوعاً من العمل الصحافي، فقلتُ أعمل معارض فنّية. ولكنّ كلّ الغاليريهات رفضت. واتّضح أنهم أغلقوا أمامي أبواب أماكن العرض الخاصة وقصور الثقافة التابعة للدولة معاً. وهذا باستثناء غاليري يتيم غير معروف في مدينة أسيوط بالصعيد، عرف معرضاً وحيداً لأعمالي». وتقع أسيوط، التي تُعدّ بمثابة عاصمة صعيد مصر، على بُعد نحو 400 كيلومتر جنوبي القاهرة.

وجاء قرار الحرمان من العمل في عهد أنور السادات على خلفية تضامن مجموعة من المثقّفين مع حركة طلاب الجامعات المنادية بتحرير الأرض من الاحتلال الإسرائيلي بالقوة والسلاح دون مزيد انتظار، وبحرية التعبير والديمقراطية ومكافحة الفساد. واتّهم النظام وصحافته المشمولين بقرار إسقاط عضوية حزب الاتحاد الاشتراكي بالشيوعية، وإن كان التوني لم ينضم إلى أي من تنظيماتها، وظل يعتبر نفسه «ثائراً متمرّداً» كما يصف نفسه، يسارياً بدون التزام تنظيمي أو قيود عقائدية.

بيروت صيف 1973

تذكّر التوني أيام وصوله إلى بيروت صيف 1973، وأكّد قائلاً: «السفر جاء بعدما سدّوا كلّ السُّبل في وجهي». وأوضح أن الوصول إلى بيروت كان بدون تلقّي عرض عمل محدّد مسبق، وإن وُجد عند غير صديق لبناني التشجيع بالكلمات والتمنّيات، وبعض الوعود الشفوية. واستخلص من مثل هذه العروض: «وجدتُ نفسي معروفاً في لبنان قبل أن أُقرّر الذهاب إليه».

وتابع: «بدأت الرحلة بالإقامة في ‹فندق أطلس› على مقربة من منطقة الحمرا. وسرعان ما جاءني في الفندق ماجد طعمة السوري الأصل القومي العربي التوجّه، وقال إنه قادم مباشرة من ‹النادي الثقافي العربي›، الذي كان يشرع في تنظيم معرض للكتاب العربي في بيروت، وطلب منّي تصميم رمزين/ شعارين بصريّين للنادي والمعرض». وأضاف: «كان هذا هو أول عرض عمل جدّي فعلي أتلقّاه بعد الوصول إلى بيروت. وطلبت الألوان وألواح الكارتون وفُرَشاً (جمع فرشاة)، وصمّمتُ الشعارين». وسكت برهة، وأضاف: «ما زال شعاري لمعرض بيروت للكتاب حيّاً إلى اليوم». في أرشيف جريدة السفير بعدد الخامس والعشرين من أيار/ مايو 1975 خبرٌ يفيد بأن معرض لوحات التوني الأول في بيروت استضافه أيضاً مقرّ «النادي الثقافي العربي».

> اتهمه نظام السادات بالشيوعية لكنّه كان متمرّداً بلا قيود

> شعاره لـ«معرض بيروت للكتاب» ما زال معتمداً إلى اليوم

مع عبد الوهاب الكيالي

بعد «النادي الثقافي العربي»، جاء عمل مستدام نسبياً مع «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» في بيروت، وعنه قال: «طلب منّي مؤسسها المؤرّخ الفلسطيني عبد الوهاب الكيالي أن أعمل مشرفاً فنياً على إصداراتها، ووافقت على الفور». وكان الكيالي قد أنشأ المؤسسة عام 1969، أي بعد هزيمة حزيران/ يونيو بنحو عامين فقط. واتّخذت من بيروت مقرّاً لها، وحيث كانت صناعة نشر الكتاب العربي في قمّة انتعاشها، فضلاً عن هامش الحرّيات النسبي المتاح مقارنة ببقية الدول العربية.

تجربة «السفير» والحمامة البرتقالية

كان على الفنان حلمي التوني الانتظار إلى آذار/ مارس 1974 ليخطو الخطوة الأهمّ في «تجربته البيروتية»، حين عمل مع جريدة السفير حال انطلاقها، وأصبح واحداً من أركانها ودعائمها. قال: «تعرّفت إلى الصحافي اللبناني طلال سلمان ناشر السفير نحو العام 1970 خلال زيارته للقاهرة، ونشأت بيننا صداقة تقوم على التقاء الأفكار والمبادئ. وفي ربيع 1974 أبلغني أنه يُعدّ لإصدار الجريدة، والوقت يضغط فيما يبحث عن شعار بصري تتميّز به».

وأضاف: «دعاني للتفكير في شيء مختلف متميّز، وبعدما عرض أمامي تصميم شعار للفنان المصري المحترف علي جمال الدين طاهر المقيم في بيروت منذ عقود ولديه مكتب للأعمال الفنّية فيها، وكان هذا التصميم عبارة عن برنيطة وقفّاز، فكرتُ من جانبي ورسمتُ حمامة، باعتبارها سفير الناس أيام زمان. رسمتُها على هيئة دائرة، وحذفت منها أجزاء، وأعطيتها اللون البرتقالي. وهذا لم يكن مألوفاً في صُحف تلك الأيام، حيث كان استخدام الأزرق والأحمر والأسود لا غير. ونجح هذا الشعار جدّاً، وأسعد طلال».

في مقال بالعدد التذكاري بمناسبة احتجاب وتوقّف «السفير»، الصادر في الرابع من كانون الثاني/ يناير 2017، كتب طلال سلمان تحت عنوان «حلمي التوني جاءنا على جناح حمامة»: «وجّهتُ دعوة عاجلة إلى الصديق الفنان المُبدع حلمي التوني الذي كان يتولّى إخراج مطبوعات ‹دار الهلال› جميعاً... وبعد طول انتظار، وعشية الصدور، هلَّ علينا حلمي التوني وفي يده لُفافة من ورق، داخلها لفافة، وداخل اللفافة كتيّب بالتعليمات الواجب اعتمادها في الإخراج. أما اللفافة الثانية فكانت تحمل رسم الحمامة التي اعتمدناها شعاراً لـ‹السفير›، بعدما استمعنا إلى فلسفتها: ألم تسمعوا بالحمام الزاجل الذي كان يصل بين المتباعدين؟ ثم إن لونها البرتقالي يرمز إلى البرتقال في يافا وكلّ فلسطين، ليتطابق مع شعاركم: صوت الذين لا صوت لهم. وجريدة لبنان في الوطن العربي. جريدة الوطن العربي في لبنان».

في الحوار معه، قال التوني: «عرض عليّ طلال سلمان أن أكون مُشرفاً فنياً على مجموعة من الشباب اللبنانيين، واستمر هذا الإشراف لنحو خمس سنوات».

(كاتب وصحافي مصري)

فن باسم فلسطين

حضرت القضية الفلسطينية في أعمال الراحل حلمي التوني منذ السبعينيات؛ حيث رسم الكثير من اللوحات حول الكفاح الفلسطيني وصمّم عشرات الملصقات عن المقاومة، ووثّق حصار بيروت الذي عاشه عام 1982، كما سجّل برسوماته يوميات الانتفاضة الفلسطينية (1987)، وصولاً إلى حرب الإبادة المستمرّة على غزّة، حين أخذ ينشر أعمالاً جديدة ويُعيد نشر أعمال قديمة عبر حسابه على فيسبوك، قبل أن يرحل في السابع من أيلول/ سبتمبر الماضي.

تصويب

إمبراطوريات آفلة وأخرى آهلة

باسم النبريص

لا أريد أن أتوقّف عن كوني الآخرين: أشعر بما يشعرون، وأكتبه بحبر الأنا. فما شعوب هذه المنطقة التعيسة من العالم، طوال قرن ونيف، إلا ضحايا الاستبداد الرأسمالي، عرفوا ذلك أم لم يعرفوا.

نحن حجارة شطرنج في يد إمبراطوريات الغرب الآفلة، والآهلة. انتقلنا من عسف بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا، إلى عسف أميركا. هذا كلّ ما في الأمر. هذا كان ويبقى وسيكون، ما لم نصحُ، وما لم نعدَّ لهم من قوّة كي نرهبهم، هُم أصل الإرهاب ومنشِئُه في العالم.

هذا هو الواقع، رضينا به أم لم نرضَ. لكنّ المؤلم (وشعب لبنان تحت أعتى درجات الهلاك، لأنه وقف مع الفلسطينيّين) بروز أصوات ليساريّين سابقين، تُبدي الشماتة عن قحّة ووضاعة، بمآسي خلق الله.

يساريون كانوا جيّدين يوماً ما، ثم انقلبوا على أنفسهم، فهل للتوغّل في العمر سبب في ذلك، أم إن الآفة هنالك في مقدار الوعي. يساريون سابقون مع سياسة العدو: فرّق، تسُد.

أي ثقافة لهؤلاء وقد خسروا أنفسهم قبل خسرانهم لأيّ قيمة وقامة؟

إن الشرف ليحتّم أن تشعر بما يشعر به أهلُك، وإلّا من أنت في هذه المهلكة؟

رحم الله حكيم الثورة حين قال: إن وقتاً سوف يأتي، وستصبح فيه الخيانة مجرد وجهة نظر.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

صنايعية الجرائد الذين جمعتهم «السفير»

في صحبة طلال سلمان وناجي العلي

خلال سنواته البيروتية، تلقّى التشكيلي المصري الراحل عروضاً عديدة كي يفتح مكتبه الخاص ويصبح «مُعلّماً»، لكنه أصرّ على أن يبقى «صنايعياً» حتى النهاية

تصميمات للتوني مُعلّقة إلى اليوم عند مدخل مبنى «جريدة السفير» في بيروت

يتابع التشكيلي المصري حلمي التوني حديثه حول سنواته البيروتية بين عامي 1973 و1986، فيقول: «أنا من وضع الماكيت الأول لجريدة «السفير»، وكنتُ أسهر كلّ يوم حتى الثالثة أو الرابعة صباحاً لأُشرف على تنفيذه. هكذا كانت صحف بيروت تظلّ تحت الإعداد وتُلاحق الأخبار لتدخُل المطابع بين الثانية عشرة ليلاً والفجر. وأنا كنت أسهر كلّ ليلة في «السفير»، وأعود على قدمَي من الصحيفة إلى سكني في الروشة. وحتى بعدما عدتُ إلى مصر لم تنقطع علاقتي ببيروت و«السفير»، وكلّما تردّدتُ على لبنان صيفاً، واستمرّت علاقتي مع طلال حتى رحيله، في آب/ أغسطس 2023».

وعن ناشر السفير يعود التوني، فيقول: «عرفت طلال منذ كان يسمّي نفسه أجيراً عند الرأسمالية الصحافية. كان يعمل في جريدة «الأيام» لصاحبها وناشرها وفيق الطيبي». واللافت أنّ طلال سلمان في كتاب «كتابة على جدار الصحافة» روى ذكريات مريرة عن خطواته الأولى في «الأيام» ومع الطيبي، دون أن يصرح باسم الجريدة أو باسم الرجل. والمعروف أن الطيبي (1925 . 1981) انتُخب نقيباً لمحرّري الصحافة اللبنانية خلال عقدي الخمسينيات والستينيات، وكذا أميناً عاماً لاتحاد الصحافيين العرب.

خلال تجربة «السفير»، تعرّف التوني إلى فنّان الكاريكاتير الفلسطيني ناجي العلي. فجأة تذكّره خلال حوارنا، وكأنّه أمرٌ ألحّ ليفرض نفسه، بدون سؤال عمّن تعرف بهم هناك. قال: «تعرّفتُ إلى ناجي العلي وأنا أعمل في «السفير». ناجي كان يزورني في المنزل دائماً. ولما شرع في الزواج طلب منّي قضاء شهر العسل في مصر، وحجزت للعروسين في «فندق البرج» أمام حديقة الأندلس». وأضاف: «كان هذا قبل ان ينتقل ناجي من «السفير» إلى «جريدة القبس» بالكويت، ثم لندن».

سألته عن الفارق بين الصحافي المصري وذاك اللبناني، فأجاب: «هو الفارق نفسه بين المصري واللبناني في المهن كلّها. عندما اشتغلت مشرفا فنّيا وكفنّان في بيروت قال لي أصدقائي اللبنانيون: لماذا لا تفتح مكتباً؟ وعند اللبنانيّين يبدأ البزنس الخاص بعد أن تبدأ العمل بقليل. وكنت أقول لهم إننا في مصر محترفون، وليس لنا علاقة بالبزنس، ولا نفتح مكاتب صحافة أو تصميمات فنّية». وأضاف: «الحقيقة أنا عشتُ طوال حياتي في بيروت أتلقّى تحريضاً تلو الآخر على أن أفتح مكتباً كي أصبح «مُعلّماً». لكنني فخور بأنني «صنايعي» إلى اليوم، وحتى النهاية». وعدتُ لأسأل عن سرّ تقدم الصحافة اللبنانية على محيطها العربي، وبخاصة تلك الورقية التي كانت، فأجاب بأنه انفتاح لبنان على فرنسا والغرب. قال: «سرّ التقدّم الفنّي للصحافة اللبنانية على مستويات الإخراج والتنفيذ والتحرير هو الانفتاح على الغرب وبخاصة المدرسة الفرنسية في الصحافة».

كارم...

إطلالة

حرفة الكتابة

سومر شحادة

الفنّ من المفاهيم التي يعوزها التعريف دائماً، إذ لا يوجد تعريف جامع له. ويأتي هذا التعذّر وغياب التحديد من طبيعته نفسها، ومن نسبيته، وأحياناً من الانقلاب اللازم على قوانينه. بطبيعة الحال، لفن الرواية تعريفات مرتبطة بالمكان والزمان والحبكة، على الأقل. لكن هذه التعريفات جميعها لا تحسم انتماء نص بذاته إلى فن الرواية أو تحقيق تميّز فيه. إذ يمكن أن تكون الرواية عكس ما اتُّفق عليه. هذا احتمالٌ قائم دائماً، وبالإمكان أن تأتي رواية جديدة بقوانينها الخاصّة، وتفرض انتماءها على الرواية. فحُكم الفنّ، منوط بالكتابة نفسها، وبالتجارب التي يعرضها الكُتّاب في الثقافات المختلفة، وبالطريقة التي يعرضون وفقاً لها حكاياتهم.

بالقليل من المجازفة في تصوير المجاز اللغوي تصويراً مادياً، يمكن التعدّي والقول إنّ الكتابة أقرب إلى الحرفة اليدوية، وهي تُقابل مهناً مثل صائغي الذهب، أو الدّباغين الذين يعالجون الجلود. لكنها حرفةٌ لا تكسو جسداً، بل تجوهر المعنى الإنساني، ثمّ تعرضهُ مكشوفاً. وهي عمل يفوق معرفة اللغة وإمكانيات استخدامها، إلى معرفة الإنسان، وصور اضطراباته... إنّها مهنةٌ من طين الحياة، من دنسها ومن مباركاتها. حتى إنّ طبقات السرد تشبه النفس التي تبدأ بما هو ظاهر، وتنتهي بالأعماق المجهولة، غير المدركة، التي لا يمكن أن يحيطها نص واحد، أو كاتب واحد، مهما بلغ من العبقرية.

استمراراً بتصوير ما هو لغوي تصويراً مادياً، فالأمراض التي تسبّبها الكتابة، هي ذاتها الأمراض التي تسبّبها مهنٌ تحتاج الجلوس لساعات طويلة. مع ذلك، أظن الكتابة أكثر ما تُقارب العمل بالصلصال الطيني، لكنه صلصال شفيف، يقتضي من الكاتب أن ينمّي حساسيته دائماً، وأن يحافظ على الحسّ السليم في استقبال الوجود بقدر ما يستطيع. الكتابة مهنة إذاً، لكنها تتعذّر على الحصر في تقاليد ممارستها، ويتعذر على الكاتب الحقيقي أن يتّبع تقاليد كاتب آخر. إنّها أشبه بالبصمة، وهي أشبه بالمصير. ولا أدلّ على حادثة موت الكاتب التشيكي بوهوميل هرابال (1914 - 1997) على هذا التفصيل بالضبط، إذ مات بالطريقة التي كان يقتل فيها أبطاله؛ سقوطاً من النافذة وهو يُطعم الحمام. المؤكد، أنّ لكلّ كاتب طقوسه، لكلّ كاتب أدواته ومفرداته. لديه ما يقبل بهِ، وما يرفضه. ولديه وحده مفردات مصيره.

لكن هذا الفنّ الذي يتعذّر على التعريف، يجد في السنوات الأخيرة ورشاً لتعليمه بالعربية، طريقةً لا تزال تبحث عن تقليدٍ خاصٍّ بها، وهو أمر شائع في الثقافات الأُخرى. وفي المبدأ، يُمكن لأحدهم أن يتعلّم بعض القوانين عن ضبط الحبكة، وعن تطوير الشخصيات، وعن لغة الحوار، وعن تعدد الأصوات. حتى يمكن مساعدة «المتدرّب» على اختيار الموضوع وإيجاد سبيل للبدء بهِ، واقتراح لاحتمالاته، وتغليب احتمال على آخر. هكذا، وصولاً إلى النهاية. لكن المؤكّد أنَّ عليه أن يجلس ويكتب بنفسه.

هذا التعلّم وارد. ولا يُمكن أن يكون المرء ضدّه. لكن من السائد الاعتراف أيضاً بأنَّ الكاتب الكبير؛ يبدأ كبيراً. لأنَّه يأتي بشُعلته معه، شعلته التي تكويه، التي تلحّ عليه، وتحرقه، وأحياناً تحرق حياته نفسها. أقصد، قد يلتصق مسار الكتابة مع مسار العيش. وهذا أمر شاق، قِلّةٌ مَنْ يستطيعون معه صبراً.

دور آخر - من بين أدوار عديدة - ينقص الرواية العربية، إلا أنَّه دورٌ كان موجوداً، ويكادُ يختفي، وهو دور الناقد؛ إذ لم يقدر النقد العربي على صنع تقاليده. واليوم، يكاد يغيب ذلك الناقد الذي يضعُ نصاً في سياق أوسع، فيعرض أهميته، ويحدّد موقعه ضمن نوعه، وفي ثقافته ككُلّ. لا يزال تعليم الكتابة، يبحث عن تقاليد. إلا أنَّ الأدب العربي، وجدَ نفسه في حلٍّ من النقد. وكأنَّما هناك أدوار تنمو على حساب أدوار أخرى، هكذا هي الدنيا، وكأنَّما هذا عصرُ تعليم الكتابة، عوض اجتراحها من الداخل بكلِّ آلام الاجتراح وإشراقاته. بغياب النقد الجديّ، مَنْ يستطيع أن يحكم؟

(روائي من سورية)

فعاليات

حتى الخامس والعشرين من الشهر الجاري، تتواصل على أرض «معرض طرابلس الدولي» في العاصمة الليبية، فعاليات الدورة الأولى من **معرض النيابة العامة الدولي للكتاب**، بتنظيم من «مركز البحوث الجنائية و التدريب»، ويشارك فيها **354 دار نشر من تسع عشرة دولة عربية وأجنبية**، ويتضمّن أكثر من 100 ألف عنوان.

يعرض فضاء «جدل للمعرفة والثقافة» عند السابعة من مساء غدٍ الجمعة شريطاً بعنوان **عائدة** (ساعة ونصف) للمخرجة اللبنانية **كارول منصور** (الصورة). يسرد الفيلم قصة «عائدة» (والدة المخرجة) مع مرض الزهايمر، ويصوّر محاربتها لفقدان الذاكرة والذات من خلال تخيّل عوداتها المتكرّرة إلى يافا وفلسطين أيام شبابها حيث ستستريح أخيراً و تسترجع كيانها.

عند السادسة والنصف من مساء الأربعاء المُقبل، تنتظم في «الجامعة الأميركية» بالقاهرة ندوة حول كتاب **تحدّي الرأسمالية الخضراء: العدالة المناخية والانتقال الطاقي في المنطقة العربية**، الصادر حديثاً عن «دار صفصافة» بتحرير **حمزة حموشان** (الصورة)، ويُشارك فيها: **أسماء محمد أمين** و**أكرم إسماعيل** و**محمد جاد**.

تحت شعار **اصنع بخيالك المستقبل** تتواصل حتى بعد غدٍ السبت فعاليات الدورة الأولى من «معرض الفجيرة لكتاب الطفل» الذي افتتح في المدينة الإماراتية الأحد الماضي، بمشاركة **40 ناشراً من الإمارات والكويت والسعودية والأردن ومصر**، ويتضمّن 43 فعالية أدبية و34 ورشة وأكثر من 10 جلسات مع مؤلّفين ومختصّين بأدب الطفل.